

العقيدة ١

المحاضرة السابعة

توحيد الأسماء والصفات

لا يعلم كيف هو إلا هو :

قوله: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدرکه الأفهام)

شرح: قال الله تعالى: (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) [١]

قال في الصحاح: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته. فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم. قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يظن أنه على صفة كذا، والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به.

والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [٢] (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [٣]

الرد على المشبهة

قوله: (ولا يشبهه الأنام) .

ش : هذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه [ص : ٨٥] وتعالى ، قال عز وجل : ليس كمثل شيء وهو السميع البصير (الشورى : ١١) . وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر : لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرويتنا . انتهى .

وقال نعيم بن حماد : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال إسحاق بن راهويه : من وصف الله فشبهه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم . وقال : علامة جهم وأصحابه ، دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب : أنهم مشبهة ، بل هم المعطلة .

وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف : علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة ، فإنه ما من أحد من نفاه شيء من الأسماء والصفات إلا يسمى المثبت لها مشبها ، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالبية الزنادقة ، القرامطة والفلاسفة ، وقال : إن الله لا يقال له : عالم ولا قادر - يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه ، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه ، ومن أثبت الاسم وقال : هو مجاز ، كغالبية الجهمية ، يزعم أن من قال : إن الله عالم حقيقة ، قادر حقيقة : فهو مشبه ، ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة - قال لمن أثبت الصفات : إنه مشبه ، وإنه : مجسم . ولهذا كتب نفاه الصفات ، من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم ، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة ، ويقولون في كتبهم : إن من جملة المجسمة قوما يقال لهم : المالكية ، ينسبون إلى رجل يقال له : مالك بن أنس ، وقوما يقال لهم الشافعية ، ينسبون إلى رجل يقال له : محمد بن إدريس ! حتى الذين يفسرون القرآن منهم ، كعبد الجبار ، والزمخشري ، وغيرهما ، يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالروية - مشبها ، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف .

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمانه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة رحمه الله أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرويتنا.

وهذا معنى قوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [٣] فنفي المثل وأثبت الصفة.

نوعا التشبيه :

التشبيه نوعان : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله ، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني ، الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق ، كعباد المسيح ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والقبور ، والجن ، وغير ذلك .

وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

النفي والتشبيه من أمراض القلوب

قوله: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه)

شرح: النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبيهة، ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن، قال الله تعالى: { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } [١]، فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } [٢] وقال تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } [٣]. فهذا مرض الشبهة، وهو أبدأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهه النفي أبدأ من شبه التشبيه، فإن شبهه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ .

، وشبه التشبيه غلو مجاوزة للحد فيما جاء به الرسول . وتشبيهه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [٤]، ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهوورد على المعتزلة .

فمن أضل ممن يعارض بين قوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) [١٢]، وبين قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [١٣]؟

ويستدل بقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [١٤] حتى أفضى هذا الضلال ببعضهم، وهو أحمد بن أبي وداد القاضي، إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثلته شيء وهو العزيز الحكيم، حرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير كما قال الضال الآخر، جهنم بن صفوان: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [١٥] فنسأل الله العظيم السميع البصير أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بمنه وكرمه.

تنزيه الرب بالذي هو وصفه:

قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية)

فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية

: يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفيًا وإثباتًا. وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص. فقوله: موصوف بصفات الوجدانية. مأخوذ من قوله تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ } [١].

وقوله: منعوت بنعوت الفردانية. من قوله تعالى: { اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [٢].

وقوله: ليس في معناه أحد من البرية من قوله تعالى: ولم يكن له كفواً أحد. وهو أيضاً مؤكداً لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه.

والوصف والنعمة مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذات، والنعمة للفعل، وكذلك الوجدانية والفردانية. وقيل في الفرق بينهما: إن الوجدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد في ذاته، منفرد بصفاته.

وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير. وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبهه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق. وليس كمثلته شيء. أكمل في التنزيه من قوله: ليس في معناه أحد من البرية.

أزلية صفات الله وأبديتها

قوله: ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً.

شرح: أي: أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل.

ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدتها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بصدده. ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والاماتة والاحياء، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء، والنزول، والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.

لأن هذا الحدث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم، لأنه لآفة كالصغر.

والخرس، ثم تكلم يقال: - حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلماً بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة.

وحول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة، وفيه إجمال:

فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة لشيء من مخلوقاته المحدثه، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن - فهذا نفي صحيح.

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته - فهذا نفي باطل.

والشيخ رحمه الله أشار بقوله: ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه إلى آخر كلامه - إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة.

فإنهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الإمتاع الذاتي إلى الإمكان الذاتي! وعلي ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما، فإنهم قالوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه. وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته.

تنزيه الله عن الحدود والغايات والأعضاء

قوله : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .

ش : أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة ، وهي : أن الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بين ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفي بها فهو منفي . لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي . ولهذا كان النفاة ينفون بها حقا وباطلا ، ويذكرون عن مثبتيتها ما لا يقولون به ، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلا ، مخالفا لقول السلف ، ولما دل عليه الكتاب والميزان . ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن [ص : ٢٦١] نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفيًا ولا إثباتًا ، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب أن ينظر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبتته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفينا . والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي ، فنثبت ما أثبتته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني . وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنى صحيحا قبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بالألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرآن تبيين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

مراد المصنف من هذا الكلام

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة ، كداود الجواربي وأمثلة القائلين : إن الله جسم ، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . [ص : ٢٦٢] فالمعنى الذي أراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقا وباطلا ، فيحتاج إلى بيان ذلك . وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حدا ، وأنهم لا يحدون شيئا من صفاته .

قال **أبو داود الطيالسي** : كان سفيان وشعبة و**حماد بن زيد وحماد بن سلمة** وشريك وأبو عوانة - لا يحدون [ص : ٢٦٣] ولا يشبهون ولا يمثلون ، يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر . وسيأتي في كلام الشيخ : وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به . فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم . سئل **عبد الله بن المبارك** : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على العرش ، بائن من خلقه ، قيل : بحد ؟ قال : بحد ، انتهى .

الخطأ في فهم النفي الساق :

وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات - فيتسلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه . قال أبو حنيفة رضي الله عنه في (الفقه الأكبر) : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، انتهى . وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه ، ثابت بالأدلة القاطعة ، قال تعالى : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي (ص : ٧٥) . والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (الزمر : ٦٧) . وقال تعالى : كل شيء هالك إلا وجهه (القصص : ٨٨) . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (الرحمن : ٢٧) . [ص : ٢٦٥] وقال تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك (المائدة : ١١٦) . وقال تعالى : كتب ربكم على نفسه الرحمة (الأنعام : ٥٤) . وقال تعالى : واصطنعتك لنفسي (طه : ٤١) . وقال تعالى : ويحذرکم الله نفسه (آل عمران : ٢٨) .

ولا يصح تأويل من قال : إن المراد باليد القدرة ، فإن قوله : لما خلقت بيدي (ص : ٧٥) . لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صح ذلك لقال إبليس : وأنا أيضا خلقتني بقدرتك ، فلا فضل له علي بذلك . فإبليس - مع كفره - كان أعرف بربه من الجهمية . ولا دليل لهم في قوله تعالى : أولم يروا أنا خلقنا

لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (يس : ٧١) . لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة . ولم يقل : ((أيدي)) مضاف إلى ضمير المفرد ، ولا ((يدينا)) بتثنية اليد مضافة إلى ضمير الجمع . فلم يكن قوله : مما عملت أيدينا نظير قوله : لما خلقت بيدي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : حجابيه النور ، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ - سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية ، تعالى الله عن ذلك ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : الذين جعلوا القرآن عضين (الحجر : ٩١) . والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع . وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة . وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى .

وأما لفظ الجهة ، فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق ، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقا ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وإن أريد بالجهة أمر عديم ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك إلا الله وحده . فإذا قيل : أنه في جهة بهذا الاعتبار ، فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع ، عال عليه .

وقول الشيخ رحمه الله : (لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) (هو حق ، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه . فإذا جمع بين كلاميه ، وهو قوله : (لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) (وقوله : (محيط بكل شيء وفوقه)) علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء ، ولا يحيط به شيء ، كما يكون لغيره من المخلوقات ، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العال عن كل شيء .

لكن بقي في كلامه شيان :

أحدهما : أن إطلاق مثل هذا اللفظ - مع ما فيه من الإجمال والاحتمال - كان تركه أولى ، وإلا تسلط عليه ، وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو ، وإن أجيب عنه بما تقدم ، من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته ، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى .

الثاني : أن قوله : (كسائر المبتدعات) يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محوي وفي هذا نظر . فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي ، ص : فممنوع ، فإن العالم ليس في عالم آخر ، وإلا لزم التسلسل ، وإن أراد أمرا عديما ، فليس كل مبتدع في العدم ، بل منها ما هو داخل في غيره ، كالسموات والأرض في الكرسي ، ونحو ذلك ، ومنها ما هو منتهى المخلوقات ، كالعرش . فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات ، قطعا للتسلسل ، كما تقدم . ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال : بأن ((سائر)) بمعنى البقية ، لا بمعنى الجميع ، وهذا أصل معناها ، ومنه ((السور)) ، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء . فيكون مراده غالب المخلوقات ، لا جميعها ، إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع ، فيكون المعنى : أن الله تعالى غير محوي - كما يكون أكثر المخلوقات محويا ، بل هو غير محوي - بشيء ، تعالى الله عن ذلك . ولا نظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول أن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفي النقيضين ، كما ظنه بعض الشارحين ، بل مراده : أن الله تعالى منزّه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته ، وأن يكون مقتبرا إلى شيء منها ، العرش أو غيره .

أولاً : صفات الذات

١- قدرته سبحانه :

قوله : (ولا شيء يعجزه) .

ش : لكمال قدرته . قال تعالى : إن الله على كل شيء قدير (البقرة : ٢٠) . وكان الله على كل شيء مقتدرا (الكهف : ٤٥) . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا (فاطر : ٤٤) . وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم (البقرة : ٢٥٥) . لا يؤوده أي : لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى : ولا يظلم ربك أحدا (الكهف : ٤٩) ، لكمال عدله . لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض (سبأ : ٣) ، لكمال علمه . وقوله تعالى : وما مسنا من لغوب (ق : ٣٨) ، لكمال قدرته . لا تأخذه سنة ولا نوم (البقرة : ٢٥٥) لكمال حياته وقيوميته . لا تدركه الأبصار (الأنعام : ١٠٣) ، لكمال جلاله وعظمته [ص : ٦٩] وكبريانه ، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه ، ألا يرى أن قول الشاعر :

قبيلة لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبيل هذا البيت وبعده ، وتصغيرهم بقوله : قبيلة علم أن المراد عجزهم وضعفهم ، لا كمال قدرتهم .

تفصيل الإثبات وإجمال النفي :

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفضلا ، والنفي مجملا ، عكس طريقة أهل الكلام المذموم : فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل ، يقولون : ليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ... إلى آخره ، . وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلت للسلطان : أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك ! لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقا ، وإنما تكون مادحا إذا أجملت النفي فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل . فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب .

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة .

فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده . والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضا جميلا ، أو يبينوا حاله تفصيلا ، ويحكم عليه بالكتاب والسنة ، لا يحكم به على الكتاب والسنة .

وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى : ولا شيء يعجزه من النفي المذموم ، فإن الله تعالى قال : وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا (فاطر : ٤٤) ، فنيه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز ، وهو كمال العلم والقدرة ، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريد الفاعل ، وإما من عدم علمه به ، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو على كل شيء قدير ، وقد علم ببدائه العقول والفطر كمال قدرته وعلمه ، فانتفى العجز ، لما بينه وبين القدرة من النضاد ، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

تحريف المعتزلة لمعنى قدرته على كل شيء :

قوله : (ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) .

ش : ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه . والكلام على (كل) وشمولها وشمول كل [في كل] مقام بحسب ما يحتف به من القران ، يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى .

وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى : والله على كل شيء قدير (البقرة : ٢٨٤) ، فقالوا : إنه قادر على كل ما هو مقدور له ، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم ، وتنازعوا : هل يقدر على مثلها أم لا ؟ ! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال : هو عالم بكل ما يعلمه ، وخالق لكل ما يخلقه ، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها . فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء .

وأما أهل السنة ، فعندهم أن الله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج في هذا . وأما المحال لذاته ، مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة ، فهذه لا حقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى

شيئا ، باتفاق العقلاء . ومن هذا الباب : خلق مثل نفسه ، وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال .

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة ، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير .

٢- صفة العلم :

قوله: (خلق الخلق بعلمه)

شرح: خلق: أي: أوجد وأنشأ وأبدع. ويأتي خلق أيضا بمعنى: قدر.

والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق.

وقوله: بعلمه في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالما بهم، قال تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبد العزيز المكي صاحب الإمام الشافعي رحمه الله وجل، في كتاب الحيدة، الذي حكى فيه مناظرته بشرا المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى: فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريرا له، و بشر يقول: لا يجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نفي الجهل لا يكون صفة مدح، فإن هذه الأسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفي الجهل.

فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبتته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه.

الأدلة العقلية على إثبات صفة العلم :

الدليل العقلي على علمه تعالى:

أ- أنه يستحيل ايجاده الأشياء بالجهل، ولأن ايجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد: هو العلم بالمراد، فكان اليجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزما للعلم، فاليجاد مستلزم للعلم.

ب- بولأن المخلوقات فيها من الأحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، .

ج- ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما. وهذا له طريقان : وهذا له طريقان: أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شينين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم - كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات، التي هي المخلوقات - فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به. والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوقات، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى.

““

بتوفيق للجميع

Khaled